

"التداولية وتحليل الخطاب"

(آليات التخاطب واستراتيجيات التأويل في الخبر التراثي)

أ.د/ شادية شقروش

كلية الآداب واللغات

جامعة العربي التبسي - تبسة.

تمهيد:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن من البيان لسحرا" لاشك في أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يجيل على تأثير الكلمة وهو الذي كانت معجزته الكلمة، والشاهد هنا هو لماذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الكلام؟ أشار الجاحظ في كتابه البيان والتبيين إلى ذلك في قوله: "جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الزبير بن بدر وعمرو بن الأهم وقيس بن عاصم. ففخر الزبير بن نفسه قائلا: يا رسول الله أنا سيد بني تميم، والمطاع فيهم والمجرب، أمنعهم من الظلم وأخذ منهم بحقوقهم، ثم أشار إلى عمرو بن الأهم وقال: وهذا يعلم ذلك. فما كان من عمرو بن الأهم إلا أن زاد في مدحه فقال: إنه لشديد المعارضة، مانع لجانبه مطاع في إذنه، ولكن هذا المدح لم يره الزبيران كافيا في حقه فقال: والله يا رسول الله لقد علم مني غير ما قال وما منعه أن يتكلم إلا الحسد. فلما سمع عمرو هذا الكلام من الزبيران غضب وقال: أنا أحسدك؟! أي أنه استنكر منه هذا الاتهام واستقبحه. ثم عاد فقال: والله يا رسول الله إنه لقيم الخال، حديث المال، أحق الوالد مضيع في العشيرة. والواضح هنا أنه غير كلامه أي بعدما مدحه عاد فذمه، ولكنه تابع كلامه قائلا: والله يا رسول الله لقد صدقت في الأولى وما كذبت في الآخرة، ولكني رجل إذا رضيت قلت أحسن ما علمت، وإذا غضبت قلت أقبح ما وجدت: فعندها قال نبي الله صلى الله عليه وسلم: إن من البيان لسحر. (1)

نستنتج من هذا الحديث أن الكلام أحدث فعلا انجازيا ترتب عنه تغيير مجرى الكلام من المدح إلى الذم، فكلام الزيرقان: "مامنعه إلا الحسد"، محتواها القضوي، أنك ياعمرؤ تحسدني ولا تريد أن تقول قولاً أكثر قوة، فترتب عن ذلك، تغيير الموقف؛ لأن عمرو لديه المقدرة على إدراك وإنتاج فعل تواصلية، وهذا ما يسمى في المعارف المعاصرة بـ: "القدرة التداولية" كما يسميها كاسير (Kasper) (1997)

والانفعال الثاني كان من الرسول الكريم، الذي أنجز فعلاً قولياً: "إن من البيان لسحراً"، ومقاصد القول هنا أن الفعل الكلامي كالتحسر، مرتبط بتغيير طبائع النفوس. ولعل ربط الكلام بطبائع النفوس كان قديماً قدم الإنسان نفسه. فالكلام إذن مداره: التلفظ والعقل والنفوس. وفي هذا الصدد يقول ابن الأنباري في كتابه أسرار العربية، باب علم: ما الكلم: "إن قائل ما الكلم؟ قيل: الكلم اسم جنس، واحده كلمة كقولك: نبقة ونبق ولسنة ولبنة ولبن (...).، فإن قيل ما الكلام؟ قيل: ما كان من الحروف دالاً بتأليفه على معنى يحسن السكوت عليه. فإن قيل ما الفرق بين الكلم والكلام؟ قيل: الفرق بينهما أن الكلم ينطلق من المفيد وغير المفيد، أما الكلام فلا ينطق إلا على المفيد خاصة. فإن قيل، فلم قلتم إن أقسام الكلام ثلاثة لا رابع لها، قيل: لأننا وجدنا هذه الأقسام الثلاثة، يُعبر بها عن جميع ما يخطر بالبال، ويتوهم في الخيال": [2].

جمع ابن الأنباري في حديثه بين:

◀ الإفادة: أي ما ينتفع به

◀ ما يخطر في البال؛ العقل

◀ ويتوهم في الخيال؛ ما يتخيله الإنسان النفس

فالكلام المفيد مداره اللفظ المفيد والعقل والنفس؛ أي: لسان + منطق + علم + النفس. ولا يخفى على الدارسين أن كل ما يتعلق بأسرار اللفظ في البلاغة والنحو قد ذكره عبد القاهر الجرجاني في كتابيه، أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز.

تحدث أرسطو عن تأثير الكلمة وهو ما عبّر عنه بمفهوم "التطهير" في معرض حديثه عن تأثير المأساة في الجمهور. فمنذ ذلك الوقت إلى يومنا هذا والبحث متواصل حول كنه الكلمة، وتأثير الكلمة.

ولا يغيب عن أذهان الباحثين أن المعارف الإنسانية متسلسلة الحلقات؛ تُرجمت أعمال أرسطو ففهمها علماء العرب واستنبطوا من خلالها البلاغة العربية والنحو والنظم، ثم تباطأت الأبحاث العربية واستفافت الأبحاث الغربية لتتسارع هذا التسارع العجيب، والفضل في ذلك يعود إلى ما أحدثه دوسوسير الذي قلب المعارف القديمة بمحاضراته في اللسانيات العامة *course de linguistique generale*، حيث أدخل في كتابه مصطلح «علامة» وتخلّى عن ملفوظ "كلمة" التي كانت شائعة، لأنه يرى «أن ما يعرّف وحدات اللغة ينتمي إلى منوال دلالي مختلف عن المنوال الذي يقتضيه استعمال مصطلح كلمة، ويرفض النظرية التي تعتبر اللغة مجرد قائمة كلامية؛ لأنها لا تكشف عن الطبيعة الصوتية أو النفسية للكلمة». [3]

وعلى هذا الأساس انتشرت الأبحاث الغربية من الوصف التجريدي للغة إلى الواقع التأثيري، ومن البنوية إلى التداولية اليوم.

كان العلماء يتحرّون الإفادة والنفع من الكلام، وتأثير الكلام، عندما بحثوا في خصائص لغاتهم، ولعل أول تصورات التداولية تتجلى في أعمال فردينان دوسوسير، الذي عالج عملية التخاطب والتحاوور في أصولها الفيزيائية البيولوجية عندما جعل «نقطة انطلاق الدارة في دماغ أحد المتحاوورين عملية تمازج بين تمثيلات العلامة اللسانية أو الصورة السمعية المستخدمة للتعبير عنها والوقائع الذهنية المسماة تصورات». [4] من هنا يتمازج المجال النفسي بالفيزيولوجي

1 - مفهوم التداولية:

جاء في لسان العرب لابن منظور في مادة (دول): «الدولة، يقال اللهم أدلني على فلان، وانصري عليه، وفي حديث وفد ثقيف: ندال عليهم ويُدالون علينا، الإدالة الغلبة، يقال أدبل لنا على أعدائنا؛ أي نصرنا عليهم، وكانت الدولة لنا (...). ندال عليه ويدال علينا؛ أي نغلبه مرة ويغلبنا أخرى تداولنا الأمر، أخذناه بالدول وقالوا دواليك أي مداولة على الأمر..... ودالت الأيام أي دارت والله يداولها بين الناس، وتداولته الأيدي أخذته هذه

مرةً وهذه مرةً، وتداولنا العمل والأمر بيننا، بمعنى تعاورناه فعمل هذا مرة وهذا مرة. « [5] » ؛ معنى ذلك أن التداول يعني تشارك الشيء وانتقاله بين الناس ومنه تداول الحديث وانتقاله عبر الزمان والمكان، وذلك حال الكلام المنطوق المتحول من سياق إلى آخر والمتداول بين الناس على اختلاف مشارهم بلغاتهم وتحولات سياقاتها بين المتواصلين يتداولونها بينهم، ولذلك كان مصطلح تداولية أكثر ثباتاً من المصطلحات الأخرى، الدارئية، النفعية التسياقية ([6]).

وهو المصطلح الذي يجذبه الفيلسوف "طه عبد الرحمان عندما تترجم مصطلح براغماتية pragmatique، المستحدث من الفلسفة المنطقية لشارل ساندرس بورس، فهو يرى حسب الترجمة أنه: الأمثل، فالفعل "تداول" «تداول التأس كذا بينهم يفيد معنى تناقله الناس وأدأروه بينهم ومن المعروف أيضاً أنّ مفهوم النقل والدوران مستعملان في نطاق اللغة المفوطة كما أنّها مستعملان في نطاق التجربة المحسوسة، فيقال: "نقل الكلام عن قائله" بمعنى رواه عنه، ويقال دار على الألسن بمعنى جرى عليها...فالتقل والتوران يدلان في استخدامها اللغوي على معنى التواصل وفي استخدامها التجريبي على معنى الحركة بين الفاعلين...، فيكون التداول جامعا بين اثنين هما: التواصل والتفاعل فقتضى التداول إذن أن يكون القول موصولا بالفعل». ([7])

على الرغم من أن منحى التداولية تطور عن الفلسفة التحليلية إلا أن المصطلح pragmatisme، يعود الفضل فيه لشارل ساندرس بورس، (ch.s.peirse) (1839-1914)، وهو مذهب نفعي يتخذ من القيمة العملية التطبيقية قياسا للحقيقة، معتبرا أن الحقيقة المطلقة غير موجودة و أنه لا شيء حقيقي إلا ما ينجح، ([8])، أشار بورس إلى هذه الأفكار بعد عودته من أوروبا إلى أمريكا في مقاليتين هامتين كتبها باللغة الفرنسية هما:

Comment se fixe la croyance؛ أي كيف يتثبت الاعتقاد سنة 1878.

Comment rendre nos idées claires؛ أي كيف نجعل أفكارنا واضحة سنة 1879. ([9]) ، وعلى الرغم من أن أبحاثه كانت مُنصّبة على المنطق والسميائيات، إلا أن المصطلح طوره كل من وليام جيمس (William James)، وجون ديوي (John Dewey).

وقبل أن تظهر الدراسات التداولية بمدة طويلة ميز الفيلسوف الأمريكي تشارلز موريس (charles moris) سنة 1938، بين مختلف الاختصاصات التي تعالج اللغة وهي:

- التركيبات syntax، أو علم التركيب ⇔ علاقة العلامات داخل الجملة؛ أي بالإجمال النحو الذي يقتصر على دراسة العلاقات بين العلامات.
- الدلاليات semantique، و علم الدلالة ⇔ علاقة الجمل بمحالات الأشياء التي تدل عليها؛ أي الذي يدور على الدلالة التي تتحدّد بعلاقة تعيين المعنى الحقيقي القائمة بين العلامات وما تدل عليه.
- التداوليات pergrmatique ⇔ علاقة الجمل بالمتلفظين بها والمؤولين لها؛ أي أن التداولية تعني بالعلاقات بين العلامات ومستخدميها ([10]) وهو تعريف يتجاوز المجال اللساني ليشمل غيره من المجالات غير اللسانية، وبالتالي أضاف شارل موريس العنصر التفاعلي.

وعليه: "فالتداولية ليست علماً لغوياً محضاً بالمعنى التقليدي يكفي بوصف وتفسير البنى اللغوية ويتوقف عند حدودها وأشكالها الظاهرة، ولكنها علم جديد للتواصل، يدرس الظواهر اللغوية في مجال الاستعمال ودمج من ثم مشاريع معرفية متعددة في دراسة ظاهرة التواصل اللغوي وتفسيره" ([11])؛ أي اللغة + السياق المحيط بالتشكيل اللغوي المنجز + علم النفس المعرفي + الزمان والمكان + المخاطب والمخاطب + الشفرة اللغوية الموحدة بين المتخاطبين + والثقافة المشتركة، كل هذه الأمور تدخل في التخاطب اليومي فهي من صميم علم التخاطب.

فكيف تتحول الأفكار المجردة والنوايا الداخلية وما يخطر بالبال إلى مقاصد يراد توصيلها؟

تتحول هذه الأفكار بين بني البشر إلى واقع مادي له وقع في نفوس المتخاطبين بواسطة اللغة؛ لأنها نظام ترميزي يمكنها التعبير عن كل شيء، ولا أقصد باللغة اللسان وإنما اللسان من مشمولات اللغة، وبالتالي يقوم تأويل جملة ما على فك رموزها؛ أي على استعمال النظام الترميزي الذي أنشأته اللغة التي استعملناها للتعبير عن تلك الجملة، من أجل بناء الرسالة، فاللغة بمثابة الجوهر الذي يُمكن للأفكار التي يتسنى نقلها مباشرة — لأنها

مجردة - أن تصبح من خلاله (الجوهر) قابلة للنقل بواسطة الجمل (ماديا) التي تعبر عنها» ([12])، والتداولية لا تعتبر هذا النظام الترميزي كافيا لنقل النوايا والمقاصد ولكن تضع له شروطا أساسية:

- 1- كيف نقول؛ أي الطريقة التي ينقل بها الكلام، حالة المخاطب الفزيولوجية ولباسه.
 - 2- ماذا نقول؛ أي محتوى الكلام "شكل الكلام"
 - 3- متى نقول وأين نقول؛ أي يدخل عنصر الزمان والمكان لتأطير العملية التخاطبية.
- والمثال الآتي يوضح ذلك أكثر: عندما يقول شخص ما لامرأة في الطريق "أنت طالق" لا يكون لهذا الفعل القولي معنى، لأن المرأة ليست زوجته، لذلك لا يقع عليها فعل الطلاق، والكلمة هنا لا قيمة لها، في حين لو قال الرجل لزوجته "أنت طالق" تكون هذه الجملة قد أنجزت فعلا كلاميا... وهذا ما يسمى في التداولية بالفعل الكلامي *actes de paroles de* وطبعا هنا تدخل كل ملاسبات القول المذكورة سابقا، والقاضي في المحكمة يلبس لباسا معيناً، وتكون له هيئة معينة و وتوقيت معين ومكان معين عندما يصدر الأحكام. والحامي والأستاذ، فلكل مقام مقال ولكل مقال ألفاظه الخاصة التي تتحكم في نفاذه ومقاصده وتأثيره.

فلاستعمال اللغوي له قوانينه وخصائصه التي تتحكم فيه، لذلك فإن معظم الباحثين في مجال التداولية، "يقرون بأن قضية التداولية هي إيجاد القوانين الكلية للاستعمال اللغوي والتعرف على القدرات الإنسانية للتواصل اللغوي، وتصير التداولية من ثم، جديرة أن تسمى "علم الاستعمال اللغوي" (*science d l'utilisation du langage*) ([13])، فمن أين نشأت التداولية، وما هي روافدها، وإذا كان لكل علم ميدان وأداة، ومصطلحات، فما هي أداة التداولية وميدانها ومصطلحاتها؟

2- روافد التداولية و نشأتها:

تستمد التداولية حياتها من الروافد الآتية:

- ◀ اللسانيات ● فردينان دوسوسير السويسري (1916.1857)
- ◀ السميائيات والمنطق ● شارل ساندرس بورسالأمريكي (1914.1839)
- ◀ الفلسفة التحليلية ● كوتلوب فريجة الألماني (1924.1848)

◀ فلسفة اللغة العادية ⦿ لودفيغ فيتغنشتاين
 ▶ علم النفس المعرفي ⦿ نظرية الملاءمة ولسن ودان سبرير

وإذا كان الرافد المهم الذي نشأت فيه التداولية هو الفلسفة التحليلية، فإن جذورها استمدت نسج الحياة من المعارف السابقة، وبالتالي يمكننا القول أن:

◀ ميدان التداولية هو: الفلسفة التحليلية+علوم لاتصال +علم النفس المعرفي +اللسانيات([14])

فإذا كان ميدان النقد هو الأدب وميدان الأدب هو اللغة فإن ميدان التداولية هوالمفوض والتلفظ؛ أي الكلام + الحالة النفسية والنوايا + التشارك والتفاعل التواصلي + المقاصد المصاحبة للكلام + السياقات، ولا يمكننا أن نفصل هذه الدارة عن بعضها لأنها مرتبطة بالتداولية ارتباطاً عضوياً لا يمكن الاستغناء عنه في أي حال من الأحوال، وهي المعايير الأربعة التي على أساسها يتحدد مفهوم التداولية؛ أي لا نستطيع أن نقول أن معيار التداولية هو البنية اللغوية وحدها لأن هذا المعيار يجعلها مساوية لللسانيات البنوية وإذا حددناها على معيار الاستعمال اللغوي وحده فإن العنصر اللغوي ينتفي وهذا مخالف لطبيعة التداولية....،وعليه فإن الحديث عن التداولية وعن شبكتها المفاهيمية يقتضي الإشارة إلى العلاقات القائمة بينها وبين الحقول المختلفة،كالبنية اللغوية وقواعد التخاطب والاستدلالات التداولية والعمليات الذهنية المتحركة في الإنتاج والفهم وعلاقة البنية اللغوية بظروف الاستعمال...إلخ، وبالتالي فهي حلقة وصل هامة بين حقول معرفية مختلفة([15])، "فمفهومها ينطلق من أنها طريقة في التفكير تبحث عن معنى الإشارات والعلامات وكل روابط الاتصال اللغوية وغير اللغوية، مستندة في ذلك على المنطق وإعمال العقل، وربط الدال بالمدلول، فهي تنقل الواقع، وتكون وسيلة من وسائل الاتصال، كما تهدف إلى إرساء قواعد عامة للفعل وعلاقته بالمحيط والواقع، وربطه بالفكر لهدف التواصل والاتصال والتبليغ" ([16])، وكذلك تهتم "بدراسة العوامل التي تؤثر في اختيار الشخص للغة وتأثير هذا الاختيار في الآخرين"([17]).

الجهاز المفاهيمي للتداولية:([18])،:

لكل علم جهازه المفاهيمي والتداولية جهازها المفاهيمي هو:

- 1- الفعل الكلامي.
- 2- المقصدية.
- 3- متضمنات القول.
- 4- الاستلزام الحواري.
- 5- نظرية الملائمة.

1- **الفعل الكلامي:** (acte de langage) (speech act): "وهو النواة المركزية في الكثير من الأعمال التداولية ويقصد به كل ملفوظ ينهض بنظام شكلي دلالي إنجازي تأثيري" ([19]):

وهو مفهوم من وضع أوستين، وتعد محاضراته الثامنة من بين المواطن المهمة في الكتاب «كيف تصنع الأشياء بالكلمات» لفهم تصويره الذي عبر عنه بقوله: «إن قول شيء ما يعني فعل شيء ما»: ثم بعد ذلك طوره تلميذه سيرل؛ فالفعل الكلامي أو العمل اللغوي، أو الفعل اللغوي حسب الترجمات المشوثة في الكتب «يعد نشاطا ماديا نحويا يتوسل أفعالا قولية..... لتحقيق أغراض إنجازية، كالطلب والأمر، والوعد والوعيد... الخ وغايات تأثيرية..... تخص ردود فعل المتلقي كالرفض والقبول» ([20]); وبالتالي فمن مستويات الفعل الكلامي: المقصدية، والكلام المتضمن في القول:

ويمكن أن نجمل الفعل الكلامي فيما يلي:

◀ **الفعل الكلامي = فعل القول + الفعل المتضمن في القول + الفعل الناتج عن القول.**

أ- **فعل القول، أو العمل القولي هو أن نقول شيئا ما؛ أي هو:**

- **فعل صوتي (إنتاج الأصوات) التلفظ مشافهة و- فعل تركيب (إخضاع الأصوات لنظام نحوي معين). وفعل دلالي (ربط الصوت والتركيب بالدلالة)**

ب- **الفعل المتضمن في القول: - القيام بفعل ما ضمن قول شيء**

ج- **الفعل الناتج عن القول: - الآثار المرتبة عن الفعل القولي**

مثال: عندما تحكم المحكمة بتجريم المتهم بإصدار حكم بسجنه، والفعل القولي يكون بهذه الصيغة القولية: "حكمت المحكمة حضوريا على المتهم بالسجن عشر سنوات" والقائل المحدد هو القاضي ولا يمكن أن يكون أحد غيره؛ لأن هذا الفعل القولي يصبح لا معنى له خارج المحكمة. والفعل المتضمن في القول: هو العقاب لمن يخالف قوانين المجتمع وردع المجرمين، أي أن القاضي أنجز بحكم القانون فعلا قوليا اجتماعيا ضمن قول شيء ما وهو تجريم المتهم وإدانتته، والفعل الناتج عن القول، أو الآثار المترتبة عن قول شيء ما: هي ردع المجرم الذي قد يتوب أو يضمن الانتقام على حسب نفسية الشخص وتأثر عائلته وحزنها، إلخ من ملاسبات التأثير.

2- متضمنات القول:

وهي الأشياء التي تحيط بالقول من سياقات وخلفيات مشتركة بين المتخاطبين. أي أن متضمنات القول: مفهوم تداولي إجرائي يتعلق بالجوانب الضمنية من قوانين الخطاب ومن أهمها ([21]) أنه يشمل الأقوال المضرة والافتراض المسبق؛ أي:

متضمنات القول = الافتراض المسبق + الأقوال المضرة

أ. الافتراض المسبق: أو «الإضرارات التداولية...» وهي عبارة عن الإضرارات التي يكون الأصل فيها مقامات الكلام. وسياقاته من حيث مناسبتها لها» ([22]) وهي الافتراضات المتفق عليها بين المتخاطبين وتشكل خلفية تواصلية من أجل نجاح العملية التخاطبية ([23])، ويستنتج ذلك من سياق اللغة

ب. الأقوال المضرة: وهي النمط الثاني من متضمنات القول وترتبط بوضعية الخطاب ومقامه على عكس الافتراض المسبق الذي يحدد على أساس معطيات لغوية

الاستلزام الحواري: l'implication conversationnelle، أي المحادثي

جاء بهذا المصطلح الفيلسوف غرايس ويقصد به أن جمل اللغات الطبيعية تدل على معنى غير محتواها القضيوي ([24]). ويقترح غرايس مبدأ التعاون الذي يتحكم في التواصل الكلامي وينهض على أربع مسلمات:

- 1- كمية الإخبار التي تنفيذ المطلوب. quantite.
- 2- كيفية القول، بمعنى لا تقل ما تعتقد أنه كاذب qualite
- 3- ملائمة القول للسياق العام.

4- جهة القول وتنص على الوضوح في الكلام (الابتعاد عن اللبس وتحرر الايجاز، وتحرر الترتيب).

وتنقسم المحمولة الدلالية للعبارة على أساسها إلى معان صريحة ومعان ضمنية.

1- فالمعاني الصريحة: مدلول عليها بصيغة الجملة ذاتها وتشمل على:

● المحتوى القضوي

● القوة الإنجازية الحرفية

2 - المعاني الضمنية: وهي المعاني التي تدل عليها صيغة الجملة ولكن للسياق دخلا في تحديدها وتشتمل على:

● معاني عرفية: وهي الدلالات التي ترتبط بالجملة ارتباطا أساسا

● ومعاني حوارية: وهي تتولد طبقا للمقامات التي تنجز فيها ([25])

وأحسن مثال نسوقه في هذا السياق، من القرآن العظيم وبالتحديد قصة يوسف، مشهد المرادة، ومشهد زوجة العزيز ونسوة المدينة.

مبدأ التعاون والمسلمات الأربع:

فزوجة العزيز في المشهدين التزمت بكلمات مقتضبة تفي بالغرض ساعدها على ذلك، السياق الذي خلقته كي تنجز بقولها فعلا؛ قالت في المشهد الأول: وهو مشهد المرادة: " هيت لك "وقالت في المشهد الثاني: مشهد النسوة: " أخرج عليهن".

فأفادت كمية الإخبار المطلوب مسند ومسند إليه، والقول كان صريحا صادقا، وجهة القول كان موجزا، وملاءمة القول للسياق العام؛ حيث كان السياق الأول: وغلقت الأبواب وراودته عن نفسه قالت. والسياق الثاني دعت النسوة واعتدت لهن متكأ وأعطت كل واحدة منهن سكيناً وقالت. فجاءت المحمولة الدلالية في المشهد الأول: تحمل معاني صريحة: هيت لك. ومحتواها القضوي، أنا أعشقتك، وأرغب فيك والقوة الإنجازية العرفية تنفيذ الطلب.

وجاءت المحمولة الدلالية في المشهد الثاني تحمل معاني مضمرة لأن ما قامت به زوجة العزيز كان نتيجة فعل قول النسوة، قال نسوة في المدينة امرأة العزيز ترواد فتاها عن نفسه، قد شعفها حبا، إنا لئراها في ضلال مبين محتواها القضوي: لا يجوز ما تقوم به زوجة العزيز

والقوة الإنجازية الحرفية: إنا لنراها في ضلال ميين، وتفيد الإنكار والاستغراب المضرر للسخرية، فترتب عن قولهن الفعل الذي قامت به زوجة العزيز، حيث حولت النسوة من سياقهن إلى سياقها لترى هل هي فعلا مخطئة أم أن ذلك فوق طاقتها. فعندما قالت أخرج عليهن، فإن المعنى هنا ليس صريحا بل مضمرا، فالمعاني الضمنية تدل عليها صيغة الجملة ويجدها السياق، فالكلمة في ذاتها عادية، ولكن ما جعلها تحمل حمولة دلالية هو الطبقات المقامية التي تولدت من القصة، ويقضي المقام هنا أن يشاهد النسوة - المستنكرات - يوسف، وفعلا عندما خرج كان ما كان: (قالت أخرج عليهن، فلما رأيته أكبره وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم، قالت فذلكن الذي لمتنني فيه) يوسف (الآية 30-31).

فتولدت المعاني الضمنية حيث ظهر ما كانت تضرر مما قامت به، ففعلها عيّر موقف النسوة منها، بل أصبحن مثلها لأنهن وُضعن في السياق ذاته. كما أن المعاني الحوارية ولدت الدلالة الإستلزامية.

- فزوجة العزيز تراود يوسف تولّد عنه استنكار، يستلزم أن يوسف عبّد؛ أي (فتاها).

- النسوة يقطنن أيديهن ويرادون يوسف، يستلزم أن يوسف ملك كريم. تحول يوسف بموجب الرؤية (رؤية النسوة) والسياق العام إلى ملك كريم، وهذه هي المعاني الضمنية التي أرادت زوجة العزيز أن توصلها للنسوة المستنكرات، ومنه تبرير فعلتها.

ك نظرية الملاءمة أو المناسبة: وهي نظرية تداولية معرفية أرسى معالمها ولسن ودان سبرير وهي نظرية إدراكية تدمج بين بنية اللغة والطبقات المقامية، والتواصل الإنساني محكوم بمبدأ التعاون وبمسلمات حوارية، فلا يمكن أن يتحاور اثنان دون أن تكون بينهما مسلمات وخلفيات معرفية وسياقات ومقامات للحديث، وعملية الإدراك تتم، لأن كل متخاطب يُخزّن في ذهنه معارف قبلية لا يكشف عنها أثناء التخاطب وإنما تُفهم مباشرة، فإذا رأيت موقفا أمامك، وقلت: وافق شن طبقة، فإن المستمع إذا كان عربيا مثقفا ويعرف أن هذا المثل يضرب لتوافق اثنين، فإن عملية الإدراك تتم، ويوافقك الرأي بقوله: فعلا، استجابة لما قلت، وقد لا يدرك كنه الكلام شخص آخر لأنه جاهلا بالأمثال العربية، فالناس طبقات والكلام

طبقات، فطلبة الحقوق عندما يتحدثون عن مادة من المواد التي يدرسونها- أمام طالب من كلية الطب فإنه لا يدرك كنه تخاطبهم والعكس صحيح، وبالتالي عملية الفهم والإدراك والاستدلال لا تتم إلا بفهم الفرضيات الاستباقية، كالذي يقوم به المحامي في المحكمة، يفترض أشياء ضد الذي يدافع عنه، ثم يعطي استدلالات منطقية تناقض الافتراضات التي وضعها القاضي، فبراءة المتهم تقوم على الافتراضات والاستدلال المنطقي من أجل إقناع المتلقي الأول وهو القاضي، وإقناع الجمهور، فنظرية الملاءمة تصلح لهذا النوع من التخاطب كما تصلح لتحليل الخطاب الأدبي، الاشعاري، السياسي...إلخ، فالخطاب الأدبي لا يمكن أن يفهم إلا إذا كان المحلل يمتلك ملكة لغوية وخلفيات معرفية ومعرفة موسوعية، من أجل بناء الافتراضات الاستباقية التي تحيلها عليه المؤشرات اللغوية، بالإضافة إلى قوة إدراكه والجمع بين المؤشرات السياقية التي تتولد من طبقات النص، يحاول القارئ أن يلائم بينها كي يبني عملية الفهم ليقنع المتلقي؛ لأن المنطق هو الذي يحكم عملية التأويل.

آليات التحليل التداولي للمخبر التراثي

وسنطبق هذه الآليات على "خبر" هند بنت النعمان والحجاج بن يوسف الثقفي.

- 1- تطبيق نظرية أفعال الكلام التي جاء بها أوستين وطورها سيرل لمن أجل معرفة كيف) أن قول شيء ما يعني شيئاً ما)
- 2 - تطبيق نظرية الاستلزام الحواري التي جاء بها غرايس
- 3 - تطبيق نظرية الملاءمة، أي النظرية المعرفية، التي جاء بها ولسن وسبرير

القصة:

"كانت هند بنت النعمان أحسن نساء زمانها فوصف حسننها وجمالها للحجاج فخطبها وبذل مالا كثيرا وتزوج بها وكتب على نفسه بعد الصداق مائتي ألف درهم، ثم إنها إنحدرت معه إلى بلدة أيها المعرة وكانت هند فصيحة أديبة، فأقام بها الحجاج بالمعرة مدة طويلة ثم إن الحجاج رحل بها إلى العراق، فأقامت معه مدة طويلة ثم دخل عليها يوما وهي تنظر في المرأة وهي تقول:

وما هند إلا ماهرة عريية سلية أفراس تحللها بغل
فإن ولدت فخلاً فله درها وإن ولدت بغلاً فجاء به البغل

فانصرف الحجاج راجعاً ولم يدخل عليها ولم تكن علمت به، فأراد الحجاج طلاقها، فأنفذ إليها عبد الله بن طاهر وأنفذ لها معه مائتي ألف درهم، وهي التي كانت لها عليه، وقال: يا ابن طاهر طلقها بكلمتين ولا تزد عليها، فدخل عبد الله بن طاهر عليها فقال: يقول لك أبو محمد الحجاج: كنت، فبنت، وهذه المائتا ألف درهم التي كانت لك قبله، فقالت: أعلم يا ابن طاهر إنا والله كنا فما حمدنا وبنا فما ندمننا، وهذه المائتا ألف درهم بشارة لك بخلاصي من كلب بني ثقيف، ثم بعد ذلك بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان خبرها ووصف له جمالها فأرسل إليها يخطبها فأرسلت له كتاباً تقول فيه: بعد الثناء على الله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم يا أمير المؤمنين إن الإناء ولغ فيه الكلب فلما قرأ عبد الملك الكتاب ضحك من قولها وكتب إليها يقول: إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعاً إحداهن بالتراب فاغسلي الإناء محل الاستعمال. فلما قرأت كتاب أمير المؤمنين لم يمكنها المخالفة فكتبت إليه بعد الثناء على الله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ يا أمير المؤمنين والله لا أحل العقد إلا بشرط فإن قلت ما هو الشرط قلت أن يقود الحجاج محملي من المعرة إلى بلدك التي أنت فيها، ويكون ماشياً حافياً بجليته التي كان فيها أولاً فلما قرأ عبد الملك ذلك الكتاب ضحك ضحكاً شديداً وأنفذ إلى الحجاج وأمره بذلك، فلما قرأ الحجاج رسالة أمير المؤمنين أجاب وامتنل الأمر ولم يخالف، وأنفذ إلى هند يأمرها بالتجهيز، فتجهزت وسار الحجاج في موكبه حتى وصل المعرة بلد هند في محمل الزفاف وركب حولها جواربها وخدمها وأخذ الحجاج بزمام البعير يقوده ويسير به، فجعلت هند تتواغد عليه وتضحك مع الهيفاء دايتها ثم إنها قالت للهيفاء يا داية إكشفي لي طرف الخباء المحمل فكشفته فوق وجهها في وجه الحجاج فضحكت عليه فأنشأ يقول:

فإن تضحكي مني فيا طول ليلة..... تركتك فيها كالقواء المفرج
فأجابته هند وهي تقول:

وما نبالي إذا أرواحنا سلمت.... بما فقدناه من مال ومن نشب
فالل مكتسب والعز مرتجع..... إذا النفوس وقاها الله من العطب

ولم تنزل كذلك تضحك وتلعب إلى أن قربت من بلدة الخليفة فرمت بدينار على الأرض ونادت: يا جمال إنه قد سقط منا درهم، فأرفعه إلينا فنظر الحجاج إلى الأرض فلم يجد إلا

ديناراً، فقال: إنما هو دينار، فقالت: بل هو درهم قال بل دينار، فقالت: الحمد لله سقط منا درهم فعوضنا الله ديناراً، فحجل الحجاج وسكت ولم يرد جواباً وأسرّها في نفسه. ويقال أنه عند وصولهم تأخر الحجاج في الإسطبل بينما الناس يتجهزون للأكل، فإذا بالحجاج لم يكن حاضراً، فأرسل إليه الخليفة ليطلب حضوره للأكل. فرد عليه نحن قوم لا نأكل فضلات بعضنا، وقيل أنه قال ربتني أُمي على ألا آكل فضلات الرجال، ففهم الخليفة وأمر أن تدخل زوجته بأحد القصور ولم يقربها، إلا أنه كان يزورها كل يوم بعد صلاة العصر.. فعملت هي بسبب عدم دخوله عليها.. فاحتالت لذلك.. وأمرت الجوّاري أن يخبروها بقدمه؛ لأنها أرسلت إليه أنها بحاجة له في أمر ما. فتعمدت قطع عقد اللؤلؤ عند دخوله... ورفعت ثوبها لتجمع فيه اللآلئ... فلما رآها عبد الملك... أثارت روعتها وحسبها وحزن لعدم دخوله بها لكلمة قالها الحجاج. فقالت وهي تنظم حبات اللؤلؤ:.... سبحان الله.. فقال عبد الملك مستفهماً: لم تقولين سبحان الله.... فقالت: إن هذا اللؤلؤ خلقه الله لزينة الملوك.. قال نعم.. قالت:: ولكن شاءت حكمته ألا يستطيع ثقبه إلا الفجر... فقال متهللاً: نعم والله.. صدقت قبح الله من لأمني فيك... ودخل بها من يومه هذا: ([26]).

التحليل:

نحاول أن نطبق مفاهيم التداولية ونستخلص النوايا والمقاصد الداخلية المضمرّة للمتخاطبين داخل النص والنوايا والمقاصد المضمرّة التي جعلت الراوي العربي ينقل لنا هذا الخبر الذي تجسده القصة.

كيف نستخرج أفعال الكلام من النص، كيف نستخلص النوايا والمقاصد من الإشارات الكلامية، كيف نستنتج متضمنات القول والمحتويات القضية والمحمولات الدلالية لبنني المقاصد؟

كيف ننتقي الافتراضات السياقية ونلائم بينها؟ كل هذه الأسئلة وغيرها سنجيب عنها ونحن نقارب النص مقارنة تداولية.

1 - أفعال الكلام:

أولاً: القول الأول صدر من هند عندما كانت أمام المرأة:
وما هند إلا ماهرة عربية..... سليلة أفراس تحللها بغل

فإن ولدت فخلأ فله درها....وان ولدت بغلاً فجاء به البغل

- فكان فعل القول:الذي قالته هند هو الأبيات الشعرية

- الفعل المتضمن في القول:مفادها أنه من سلالة البغال وهي من سلالة الخيل وهو محتوى

الكلام

استعارت فيه هند المفاضلة بين الحيوانات لتبين شرف أصلها عن أصله، وهذا ما فهمه

الحجاج

- عمل التأثير بالقول: نجم عن هذا القول تأثر السامع، وهو الحجاج بن يوسف الثقفي لأنه

فهم أن زوجته تبغضه ولا تحبه وبالتالي:أنجز على غراره فعلا قوليا مفاده "أنت

طالق"، حيث بعث لها عبد الله بن طاهر وأنفذ لها معه مائتي ألف درهم وقال له طلقها في

كلمتين لا تزد عليها فكان الفعل الكلامي مكتمل الشروط:وهو ينقسم إلى:

الفعل القولي المنجز بواسطة عبد الله بن طاهر: "كنت فبنت" أما الفعل المتضمن في القول

فهو:أنت طالق، حيث تم من خلاله انجاز فعل اجتماعي هو انفصال هند و الحجاج.أما فعل

التأثير بالقول:تأثرت هند بما سمعته تأثرا ايجابيا فأعطت مؤخر صداقها لمبشرها عبد الله بن

طاهر، وقالت قولا لتعبريه عن سعادتها:إعلم يا ابن طاهر إنا والله كتنا فما حمدنا وبنا فما

ندمنا، وهذه المائتا ألف درهم بشارة لك بخلصي من كلب بني ثقيف.

ولعل قولها هذا هو الذي يكشف نواياها المبيتة من قولها الأول عندما سمعها الحجاج،

فلفظ "كلب بني ثقيف" فيه حمولة دلالية مبيتة لشدة بغض هند للحجاج. والفعل الكلامي

المنجز حاملا لجميع شروط التواصل الانساني الحقيقي حيث كان واضحا موجزا ومرتبيا سواء

أتعلق الأمر بمقولة الحجاج أم بما قالته هند؛أي هناك ثلاث خصائص للفعل الكلامي الكامل:

— إنه فعل دال

— إنه فعل انجازي؛ أي ينجز الأشياء والأفعال الاجتماعية بالكلمات

— إنه فعل تأثيري؛ أي يترك آثارا معينة في الواقع، خاصة إذا كان ناجحا

— يقوم كل فعل كلامي على مفهوم التصديةة([27]).

ولعل هذا الفعل الاجتماعي المنجز: وهو الطلاق وفك عرى الزوجية وانفصال هند عن الحجاج نجم عنه فعلا قوليا آخر، حيث بعث لها عبد الملك بن مروان بخطبها، ولولا الفعل الكلامي الأول لما حدث الفعل الكلامي الثاني: الذي مفاده ارتباط هند من أمير المؤمنين. نستطيع أن نبني مقاصد هند من قولها الأول؛ أي الأبيات الشعرية، بأنها بهذه المفاضلة ترغب بمن هو أفضل من الحجاج، وفعلا كان لها ذلك، لأنه حسب الأقوال التاريخية منهم من يقول: أن هند بعثت أحدهم يرعّب عبد الملك بن مروان فيها. وهي بذلك تريد أن تنتقم من الحجاج، والسياقات القادمة تثبت ذلك، فهند تريد أن تحقق رغبة في ذاتها وتؤدي الحجاج نفسيا.

الفعل الكلامي التالي: هو ما حدث بين هند وعبد الملك بن مروان: أنه بعث بخطبها فردت عليه باحترام: وهو فعل الأنثى المتمنعة الراغبة في الآن نفسه ب: فعل القول المتمثل في: أعلم يا أمير المؤمنين: أن الإناء ولغ فيه الكلب - فيكون الفعل المتضمن في القول: الرفض بلباقة، أي أنها تقصد أنها كانت متزوجة من شخص نجس وهو دونك في المنزلة وهو والي عندك ومقامك عالي، وقد يكون الكلام المتضمن في القول الاستفهام الذي غرضه التعجب والاستنكار. وأما فعل التأثير بالقول: هو الضحك والقصد منه الاستحسان، ثم انجاز قول مقابل القول الأول المنجز على شاكلة ما أخبرته: ولأن الخلفيات المعرفية واحدة فإن أمير المؤمنين أعجبته بلاغتها، فانجز فعلا كلاميا ترتب عن ردة الفعل يتمثل في: فعل القول المقتبس من الحديث النبوي الشريف: إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعا إحداهن بالتراب فاعسلي الإناء محل الاستعمال. و الفعل المتضمن في القول: أنا أقبل الزواج منك وأرغب فيك ومثلما أن الإناء لا يرمى عندما يولغ فيه الكلب، فإنك طاهرة كطهارة الإناء، لذلك عليك أن تزعي نجاسة الحجاج من فكرك ومن خاطرك. و فعل التأثير بالقول: قبلت الزواج بشرط: وذلك بقولها: يا أمير المؤمنين والله لا أحل العقد إلا بشرط فإن قلت ما هو الشرط قلت أن يقود الحجاج محملي من المعزة إلى بلدك التي أنت فيها، ويكون ماشياً حافياً بجليته التي كان فيها أولاً. فتأثر من قولها وضحك ضحكا شديدا ثم أنفذ الأمر للحجاج، الذي ترتب عليه الامتثال لأمر الأمير وهو فعل كلامي مقتضاه الأمر من الأمير والطاعة من الوالي وهو فعل كلامي انجازي أيضا.

والأفعال الكلامية المنجزة عرضها التصادم والتأثير في النفوس

أما الأفعال الكلامية في طريق هند إلى زوجها الثاني، فكانت بين هند والحجاج لتنتقم منه بطريقة ذكية وذلك بالتأثير عليه نفسياً وغرضها من ذلك جرح مشاعره كما جرح مشاعرها بالطلاق، وهي عزيزة نفس وغرضها هو احتقاره والسخرية منه.

فجعلت هند تتواعد عليه وتضحك مع الهيفاء دايتها ثم إنها قالت للهيفاء يا داية إكشفي لي طرف المحمل فكشفتها فوق وجهها في وجه الحجاج فضحكت عليه فأنشأ يقول:

فإن تضحكي مني فيا طول ليلة..... تركتك فيها كلقباء المفرج

فعندما ضحكت: قال؛ أي ترتب على سلوكها الساخر فعلا كلاميا جارحا من الحجاج فكان:

- فعل القول المتمثل في: فإن تضحكي مني فيا طول ليلة..... تركتك فيها كلقباء المفرج

- الفعل المتضمن في القول: أنتي تركتك أو جعلتك مقهورة ليالٍ طويلة وأنا لا أعبأ بضحكك، لأنك مملوءة بالغيظ، والغرض منه السخرية من سلوكها.

- فعل التأثير بالقول: أنها تأثرت وأنشأت قولاً شعرياً أيضاً رداً على سخريته، ولكن القول الذي

أنجزته تحول إلى فعلاً كلامياً مضمراً يظهر في نهاية القصة

الفعل الكلامي لهند: فعل القول المتمثل في:

وما نبالي إذا أرواحنا سلمت..... بما فقدناه من مال ومن نشب

فالمال مكتسب والعز مرتجع..... إذا النفوس وقاها الله من العطب

والفعل المتضمن في القول: أن نفسي وقاها الله من العطب وأنت هو العطب، والكلام غير

مباشر طبعا

و فعل التأثير بالقول: إضمار الغيظ، وسيتبين ذلك مما فعله الحجاج مع عبد الملك بن مروان

وغرضه تنغيص العيش على هند، فعندما سكت أرادت أن تؤثر فيه أكثر لماذا؟ لأن كلامه

أثر فيها، فطبيعة المرأة غير طبيعة الرجل وهنا تظهر قوة الحجاج بن يوسف الثقفي على الرغم

من الموقف الذي وُضع فيه، فمن الصعب على الحجاج وهو من هو أن يقود هودج طليقته

ليقدمها عروساً لأمر المؤمنين.

ما فعلته هند: أنها رمت بدينار على الأرض ونادت:

- فعل القول المتمثل في: يا جبال إنه قد سقط منا درهم، فأرفعه إلينا

- الفعل المتضمن في القول: السخرية منه ومقتضاه أنها تريد أن يقول إنه دينار، لأن الدينار

من ذهب والدرهم من فضة، ومقتضاه أن الحجاج درهم وعبد الملك بن مروان دينار.

- فعل التأثير بالقول: رفعه إليها وأُنجز قولاً: فقال: إنما هو دينار، فقالت: بل هو درهم، قال بل دينار فقالت الحمد لله، سقط منا درهم فعوضنا الله دينارا وفعل التأثير بالقول الثاني: فجعل

الحجاج وسكت ولم يرد جواباً وأسرّها في نفسه

وعند الوصول دعاه عبد الملك إلى الطعام فأُنجز فعلاً كلامياً قويا ونافذاً وناجحاً: فكان فعل القول المتمثل في: نحن قوم لا نأكل فضلات بعضنا أو قال ربتي أُمي على ألا آكل فضلات الرجال و الفعل المتضمن في القول: أنك تزوجت فضلي، وغرضه إفساد زواج هند.

- فعل التأثير بالقول: امتناع عبد الملك من الدخول بهند، أي فهم الخليفة مقصد الحجاج وتأثر بما قال، وأمر أن تدخل زوجته بأحد القصور ولم يقربها إلا أنه كان يزورها كل يوم بعد صلاة العصر.

فعلت هي بسبب عدم دخوله عليها.. فاحتالت لذلك.. أي أنها خططت وخلقت سياقاً لفعالها الكلامي كي يكون إنجازياً، لأنها تريد أن تقول كلاماً أقوى مما قاله الحجاج، وسيستقر انتصارها على الحجاج. وأمرت الجواري أن يخبروها بقدمه لأنها أرسلت إليه أنها بحاجه إليه في أمر ما.

فتعمدت قطع عقد اللؤلؤ عند دخوله... ورفعت ثوبها لتجمع فيه اللآليء... فلما رآها عبد الملك... أثارتة روعتها وحسنها

وهذه الانجازات جميعها تدخل في مقام الكلام وسياقه كي يحدث الإقناع.. فقالت وهي تنظم حبات اللؤلؤ.... سبحان الله.. فقال عبد الملك مستفهماً: لم تقولين سبحان الله.... فتمثل الفعل الكلامي فيما يلي: فعل القول المتمثل في: إن هذا اللؤلؤ خلقه الله لزينة الملوك.. قال نعم.. قالت:: ولكن شاءت حكمته ألا يستطيع ثقبه إلا الفجر.

- الفعل المتضمن في القول: أنها مخلوقة كي تتزوج ملك ولكن شاءت الأقدار أن أول من تزوجها كان شخصاً همجياً غير متحضر، وهي تشبه الآن اللؤلؤ المرمرى على الأرض وهو خطاب غير مباشر لكي يدخل بها، لأن زينته تكون بها كاللؤلؤ في تيجان الملوك، و فعل التأثير بالقول: فقال متهللاً. نعم والله.. صدقت قبح الله من لأمني فيك... ودخل بها من يومه هذا.

ولا يمكن أن تنجح هند في إنجاز فعالها الكلامي لولا السياق الذي خلقتة وهو تمثيل مكاني غرضه التأثير في عبد الملك بن مروان وتنشيط متخيله وتنبيهه أنها جوهرة ثمينة لا يجوز رميها على الأرض، كما أن ما قالته كان صادقاً، وهذا يدخل في المعرفة المشتركة بين

المتخاطبين، كما لا يمكنها أن تعرض نفسها على زوجها، أو تلومه مباشرة، فكرامتها تأتي عليها ذلك.

2- تطبيق الاستلزام الحوارى أو المحادى (نظرية المحادثة)

لعل القصة جميعها تحمل في طياتها كلمات لا تدل على محتواها القضىوى وممكن أن نلتقط الكلمات التى أشارت بها هند إلى الحجاج من النص فى قولها:

1- تحللها بغل، والده بغل، ومنه، البغل = الحجاج

2 - كلب بنى ثقيف = الحجاج

3 - ولغ الكلب فى الإناء، ومنه الكلب = الحجاج

4 - إذا النفوس وقاها الله من العطب، ومنه العطب = الحجاج

5- الحمد لله سقط منا درهم فعوضنا الله دينارا، فالدرهم = الحجاج

6 - ولكن شاءت حكمته ألا يستطع ثقبه إلا العجر، ومنه العجري = الحجاج

وبالتالى فالمحولة الدلالية للكلمات التى استعملتها هند فى وصف الحجاج

تحمل المعنى الصريح والمعنى الضمنى، فالمعنى الصريح، محتواه القضىوى هو = الحجاج بغل وكلب وعطب ودرهم وعجري والقوة الإنجازية للحرف: التشبيه البليغ وأداته محذوفة، والمعنى الضمنى يحتوى على المعنى العرفى والمستلزم الحوارى؛ فالمعنى العرفى هو أن البغل جلف، والكلب نجس، والعطب عاهة، والدرهم رخيص، و العجري همجى غير متحضر.

والاستلزام الحوارى أو معنى المستلزم الحوارى: هو أن الحجاج جلف، نجس، عاهة، رخيص،

همجى غير متحضر

بالمقابل ترددت صفات هند ب:

1 - محرة عربية سليبة أفراس؛ أى محرة=هند

2 - ولغ الكلب فى الإناء؛ الإناء=هند

3 - إن هذا اللؤلؤ خلقه الله لزينة الملوك؛ أى أن اللؤلؤ=هند

3- علمتنى أى أن لا أكل فضلة الرجال؛ أى هند فضلة

أما عبد الملك بن مروان =الدينار

فالمحولة الدلالية للكلمات تتألف من: المعنى الصريح: ومحتواه القضىوى محرة، إناء، لؤلؤ

القوة الإنجازية للحرف، التشبيه البليغ محذوف الأداة والمعنى الضمى: ويتضمن المعنى العرفى:

المهرة سلبية الفرس وقدرها شريف ومعقود في نواصيها الخير. واللؤلؤ قيمته ثمينة ويقتنيه الملوك، والإناء وهو الذي نحتاجه للأكل ونحتاج لتنظيفه والفضلة بقايا الأكل المستلزم الحواري: هند شريفة الأصل، قيمتها ثمينة، كما أنها لا حول لها ولا قوة كالإناء تحتاج إلى تنظيف كما أنها مطلقة، وهي بالنسبة للحجاج فضلة.

كما نجد جملة دلالية واحدة بالنسبة لعبد الملك بن مروان المعنى الصريح محتواه القضوي عبد الملك، دينا والقوة الإنجازية للحرف حذف أداة التشبيه، المعنى الضمني: محتواه العرفي: الدينار غالي القيمة وهنا وضع الدينار للمفاضلة بينه وبين الدرهم حسب السياق المذكور

المستلزم الحواري: أن عبد الملك بن مروان أعلى من الحجاج؛ أي أن هند أبدلها الله رجلا أفضل قيمة من الحجاج

نظرية الملاءمة أو المقاربة المعرفية التداولية للقصة:

كي نطبق هذه النظرية علينا أن نبنى الفرضيات الاستباقية من أجل تأويل النص ثم نبث في مقاصد الكاتب التي سنكشف عنها في نهاية التحليل.

من المعلوم أن هذه النظرية قد جمعت بين فلسفة اللغة وعلم النفس المعرفي أي بين مقولات غرايس وأوستين وسيرل، حيث قلصت من مقولات غرايس واكتفت بمبدأ الملاءمة الذي يعد تعميما للمناسب الاستدلالي.

مناسب لأن المتكلم يستعمل المثير الأكثر ملاءمة لإبلاغ افتراضاته واستدلالي، لأن المتلقي يستدل على القصد الإخباري انطلاقا من المؤشرات السياقية، لذلك يمكننا أن ندخل لنص الحجاج بن يوسف الثقفي وهند بنت النعمان من ثلاث مداخل:

المدخل المنطقي، والمدخل المعجمي، والمدخل الموسوعي وسنطبق هذه المداخل على العنوان أولا كي نبنى الافتراضات الاستباقية

1- المدخل المنطقي

الحجاج بن يوسف الثقفي هو اسم علم يدخل في علاقة احتواء مع اسم العلم الثاني هند بنت النعمان فتح متخيل القارئ للإصبات للقصة

2- المدخل المعجمي: الحجاج بن يوسف الثقفي من قبيلة بني ثقيف كان واليا مؤدبا لأهل العراق في عهد عبد الملك بن مروان وهو الذي عرف ببلاغة المنطق وقوة الحجج. أما هند

بنت النعمان: امرأة عربية أصيلة جميلة وشاعرة، كما أن الجملة مبتدأ معطوف على خبر محذوف تقديره هذا.

3 - المدخل الموسوعي: ويقتضي استدعاء المخزون المعرفي الديني / التاريخي / السياسي إلى ذاكرة القارئ ونبث فيه عن كل ما يتعلق بتاريخ الحجاج وتاريخ هند والسبب الذي جعله يتزوجها، لأن هذه المعطيات الخارجة عن نطاق اللغة هي التي سنسني بها الفرضيات التأويلية ونكتشف من خلالها لماذا جرى سياق التخاطب بين الحجاج وهند على هذا المنوال. فالحجاج بن يوسف الثقفي رجل غني عن التعريف فهو معروف لكل من له ولع بالتاريخ ومعروف أيضاً للباطن من الناس كونه رمزاً تاريخياً للدكتاتورية الفردية، التي خلقتها الظروف غير الطبيعية التي مرت بها الدولة الإسلامية في المراحل الأولى لتكوينها بعد نهاية حكم الراشدين (رض).

والمرأة العربية سواء في الجاهلية أم بعد الإسلام كانت ذات عقل راجح وقدرة على الفعل والتحكم بالأشياء بطريقة كسبت بها ودّ الآخرين واحترامهم. وتعاملت هي الأخرى مع رموز الدكتاتورية والتفرد بطريقة استطاعت من خلالها أن تكسر شوكة المتفردين بالرأي والباخسين للناس عقولهم وقدراتهم. حتى خلد التاريخ حكايات ومواقف كهذه، وما حكاية هند بنت النعمان بن بشر إلا واحدة من تلك الحكايات الرائعة التي تسر النفوس. وتثبت للناس قدرة المرأة على أن تكون نداءً بعقلها وفطنتها لأعنى الطغاة. كانت هند بنت النعمان إحدى نساء العرب المشهورات بالجمال والحكمة والفطنة، فقد كانت شاعرة فصيحة وأديبة، كما يؤكد ذلك ابن قيم الجوزية في كتابه أخبار النساء. تزوجها الحجاج بن يوسف الثقفي، وبعد أن ظهر على حقيقته الإجرامية، كرهته وتناقلت منه وأبدت له بشكل مباشر عدم انسجامها مع أفكاره وتصرفاته،. ([28])

وبالتالي لا تغيب عنا هذه المعطيات ونحن نحلل، لذلك يمكننا أن نقول أن هناك نية مبيتة من طرف هند عندما قالت تلك الأبيات، بل إن السياق يجعلنا نعتقد أنها تعمدت قول ذلك. فهي زوجته وتعرف أنه سيأتي في تلك اللحظة، وما يؤكد اعتقادنا هو ما قامت به من حيلة عند استقبالها لعبد الملك بن مروان في نهاية القصة.

وموقف الحجاج منها لم يكن وليد فراغ وهو الذي بذل فيها النفس والنفيس، وإنما تلك المقولة كانت القطرة التي أفاضت الكأس، فمحتواها القضوي التفاضلي، يبين أن هند

من سلالة أفضل من سلالة الحجاج، ثم نعتته بصفة البغال ولكم أن تتصوروا هذا الحيوان من أين ولد ومن هو أبوه، أي أنه هجين، كما أنه عقيم، وبالتالي، فهي تسب والديه أيضا، لذلك لم تتحمل كرامته هذه الإهانة، وهو من أرباب البيان، فبعث إليها وطلقها.

وعندما خطبها عبد الملك بن مروان، نعتت الحجاج بالكلب ولا تقصد هنا صفة الوفاء ولكنها قالت ولغ الكلب في الإناء معنى ذلك أن الحجاج مرتبط بالنجاسة، وبالتالي فهو حيوان عقيم ونجس بالنسبة إليها، وعندما أرادت أن تنتقص من قيمته مرة ثانية خلقت لنفسها سياقاً أرادت من خلاله أن تذّله: «أولا اشترطت من سيدها أن يقود هودجها بلباسه القديم قبل أن يكون واليا على العراق، وكذلك رميها للدينار لتثبت له أنها تزوجت من هو أفضل منه، وأنها ستصبح زوجة أمير المؤمنين، فتشككت في قلب الحجاج ضعيفة جعلته يفسد عليها ليلتها بكلمة.

ولعل السياق كان مناسباً جداً وبلاغة العرب تكمن في حسن تخبّر الألفاظ في السياق المناسب، لذلك قال الحجاج علمتني أمي أن لا آكل فضلة الرجال، وكلمة أكل دخلت في سياق آخر، فأدت معنى آخر فسياق عبد الملك بن مروان هو الأكل من الوليمة، وسياق الحجاج هو أنك أكلت فضلي بتزوجك هند، لماذا؟ لأن السياق يفهم من توالي الأحداث أولاً ثم ماتحمله كلمة أكل في الموسوعة المعرفية والمخزون الذاكري لكل من الحجاج وعبد الملك.

ثم يأتي بعد ذلك السياق الثاني الذي خلقته هند كي تنقذ نفسها من مكيدة الحجاج، الذي نغص عليها زواجها، فخلقت لنفسها سياقاً من أجل إقناع عبد الملك بن مروان، فمزقت عقد اللؤلؤ وتكلمت سبحانه الله، طبعاً لم يكن الكلام وحده مقنعاً لو لا تلك الحركات التي صاحبت كلماتها، فحدث الإقناع، وغلبت حجتها حجة الحجاج، وربما بهذا الصنيع جعلت عبد الملك يتذكر ما قالته أولاً؛ بأن الحجاج نجس كالكلب، وهي تصرّ على موقفها لتنتعته مرة ثانية بالعجري، وليست مسألة الإقناع بالأمر الهين وإنما قوة الكلمة والسياق المناسب وهيئة الشخص وهو يتكلم كلها تتجمع لتؤثر في المتلقي، الذي يعتمد بدوره على مخزونه الذاكري؛ بأن العجري هو ذلك الهمجي غير المتحضر، ويربط ذلك بالحجاج كما يربطه بنجاسة الكلب، ثم ينظر أمامه فيجد جوهرة ثمينة كهند، ذنبها الوحيد أنها كانت زوجة الحجاج بن يوسف

الثقفي، وكأنها بذلك تقول لعبد الملك: ما كان ينبغي أن أكون زوجة ذلك الحيوان، العقيم، النجس، الممجي، بل من المفروض أن أكون جوهرة في تاج ملكك. أما مقاصد واضع هذه الحكاية، فإنه إما أنه يريد أن يكرم المرأة ليبين قوة المرأة العربية في حسن التخلص من المآزق، وهو بهذه الطريقة كلام موجه للمرأة بالدرجة الأولى كي تعرف كيف تتصرف، فالقوة الحقيقية هي قوة الفكر.

أو أن واضع الحكاية يريد أن يثبت مقولة أن: "كيد النساء أقوى من كيد الرجال"، حتى لو كان الحجاج بن يوسف الثقفي وهو من هو. وبالتالي يُرسخ الراوي هذا المنظور في الفكر العربي. ولعلنا بقراءة سريعة لكتب التراث كألف ليلة وليلة، والمستطرف في كل فن مستطرف، والعقد الفريد والأغاني، نجد أن ذكر الحادثة يأتي مرة بمفهوم الكيد، ومرة بمفهوم بلاغة النساء، وهذا ما يؤكد أن المقاصد تختلف من شخص لآخر حسب السياق الذي ترد فيه الحكاية، فلو نظرنا إلى مواقع التواصل الاجتماعي في العصر الراهن نجد أن الخبر متواتر بمفهوم الكيد. ومفهوم شجاعة المرأة وحسن تصرفها، وكل رقعة جغرافية تنظر إلى الخبر بمنظورها ومنظور نظرتها للمرأة، فتبرز قيمة المرأة في مجتمع، وتتدنى قيمتها في مجتمع آخر.

الهوامش والمراجع

- ([1]) أبو عثمان عمرو بن بحر (الجاحظ): البيان والتبيين، مج1، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط7، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، 1998، ص66.
- ([2]) أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد (الأباري)، أسرار العربية، تحقيق: محمد بهجة البيطار، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق، سوريا، دت. ص: 34-35.
- ([3]) (آن روبول، جاك موشلار: التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ترجمة: سعيد الدين دغفوس، محمد الشباي، مراجعة لطيف أبوني: المنظمة العربية للترجمة، دار الطليعة للطباعة والنشر: ط1، بيروت، لبنان، 2003 ص 158.
- ([4]) فردينان دوسوسير: محاضرات في اللسانيات العامة، ترجمة يوسف غازي ومجيد النصر، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر 1986 ص: 23.
- ([5]) ابن منظور: لسان العرب،، مادة "دول"، دار المعارف، القاهرة، دت، ص: 1456.
- ([6]) خليفة بوجادي: في اللسانيات التداولية، مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، العلمة، الجزائر، ط.1، 2009، ص148.
- ([7]) طه عبد الرحمن: تجديد المنهج في تقويم التراث: المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، ص244.
- ([8]) د. سيف الدين دغفوس، د. محمد شيباني، المعهد العالي بتونس، تعليق هامش ص 28 من كتاب " التداولية اليوم علم جديد في التواصل " لآن روبول و جاك موشلار وهو الكتاب المترجم من طرفها، ص28.
- ([9]) سعيد بنكراد: السيميائيات والتأويل، مدخل لسيميائيات ش.س بورس، المركز الثقافي العربي، ط.1، الدار البيضاء، المغرب 2005 ص16.
- ([10]) ماري نويل وقاري برور: المصطلحات المفاتيح، ترجمة عبد القادر فهم الشيباني ص 82. وانظر أيضا، آن روبول و جاك موشلار: التداولية اليوم علم جديد في التواصل ص 29.
- ([11]) مسعود صحراوي: التداولية عند العرب "دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، ط1، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 2005، ص: 16.
- ([12])، آن روبول و جاك موشلار: التداولية اليوم علم جديد في التواصل ص 19.
- ([13]) مسعود صحراوي: التداولية عند العرب ص 17.
- ([14]) هذه المقولات خلاصة ما استنبطته من قراءاتي المكثفة حول التداولية والسيميائيات، وما استنبطته من كتاب التداولية اليوم علم جديد في التواصل آن روبول و جاك موشلار، وكتاب التداولية عند العلماء العرب مسعود صحراوي (الجزء النظري)، وإن كنت لا أشاطره الرأي في إبعاد المنطق البيروني والبراغماتية الأمريكية: لأن جون أوستين متأثر بالفلسفة البراغماتية الأمريكية، حيث قدم محاضرات وليام جيمس سنة 1955، وكان هدفه من تقديم هذه المحاضرات وغيرها من المحاضرات الأخرى وضع أسس للفلسفة التحليلية الأنجلوسكسنية، ولذلك لم يستبعد الفيلسوف المغربي طه عبد الرحمن البراغماتية الأمريكية من منظوره عندما أطلق مصطلح التداولية على ما يسمى بالبراغماتية أو الذرائعية أو النفعية وذلك سنة 1970.
- ([15]) مسعود صحراوي: التداولية عند العرب ص 16.

[16]. عبد الحكيم سمحالة، "التداولية النشأة والتطور، منتدى ينبوع المعرفة، قسم الدراسات العليا والجامعة
:http://boumansouraeducation.ahlamountada.com/t221-topic:

[17]. مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب العرب ص 30 بتصرف.

[18] الحيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، ترجمة محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،
1986، ص 33.

[19]. مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب ص 40

[20]. آن رويول وجاك موشلار: التداولية لليوم علم جديد ص 267

[21]. ينظر مسعود صحراوي: التداولية عن العرب ص 45.

[22] مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب ص 31

[23] المرجع نفسه ص 30

[24]. طه عبد الرحمن: اللسان والميزان والتكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب،
1998م، ص 113

[25]. مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب ص 33

[26]. قصة هند والحجاج مأخوذة من كتب تراثية بتصرف مني: ينظر: ألف ليلة وليلة، ج 4، الليلة الثالثة والثلاثين
والرابعة والثلاثين بعد الستائة، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ص 92-93، وينظر أيضا: شهاب الدين محمد
بن أحمد أبي الفتح الأبيشيبي: المستطرف في كل فن مستظرف، فصل: بلاغة النساء، ص 50-52، تحميل الكتاب من
موقع الحكواتي:

http://www.al-hakawati.net/arabic/civilizations/218.pdf

[27]. مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب ص 44

[28]. د. علي العكيدي الأحد 2007/05/13 موقع مركز كلكامش لدراسات والبحوث الكوردية: الرابط الإلكتروني:

http://www.gilgamish.org/viewarticle.php?id=articles-20070513-1786